اللون والطبيعة في خطب العصر الأموي والعباسي

خيرية توفيق محمود سلطان أ.د. محمد سعيد حسين الجبوري
جامعة تكريت / كلية التربية للبنات
Tufek2023@st.ta.edu.iq

الملخص

تتناول هذه الدراسة مبحث اللون والطبيعة في العصرين الأموي والعباسي، من حيث حضورهما الفني والدلالي في الخطاب الأدبي، ولا سيما في الخطابة. وقد كشفت الدراسة عن دور اللون بوصفه أداة تعبير رمزية وشعورية، تُجسّد مواقف الحزن، الفخر، السمو، أو التوتر، بحسب السياق النفسي والثقافي للنص، كما أظهرت أن عناصر الطبيعة، كالليل، والنجوم، والصحراء، والنبات، والماء، كانت وسيلة فنية لتشكيل صور جمالية تعبّر عن التناقض بين القسوة والجمال، بين الثبات والتحوّل، وبين الفناء والخلود .

الكلمات المفتاحية: (اللون ،الطبيعة ،الخطابة، العصر الأموي).

Color and Nature in Umayyad and Abbasid Speeches

Khairiya Tawfiq Mahmoud Sultan,
Prof. Dr. Muhammad Saeed Hussein Al-Jubouri
Tikrit University / College of Education for Girls
Tufek2023@st.ta.edu.iq

Abstract:

This study examines the topic of color and nature in the Umayyad and Abbasid eras, in terms of their artistic and semantic presence in literary discourse, particularly in rhetoric. The study reveals the role of color as a symbolic and emotional tool of expression, embodying situations of sadness, pride, sublimity, or tension, depending on the psychological and cultural context of the text. It also demonstrates that natural elements, such as night, stars, desert, plants, and water, were an artistic means of forming aesthetic images that express the contrast between cruelty and beauty, between constancy and transformation, and between mortality and eternity.

Keywords: (color, nature, rhetoric, Umayyad era)

تمهيد

تعدّ الألوان عنصرًا جوهريًا في تكوين الطبيعة وتفاعل الإنسان معها، فهي تعكس التوازن والتناغم الذي يميز الكون، حيث تُعبر عن الحياة والتنوع البيئي بدءًا من خضرة النباتات وألوان الأزهار المتعددة وصولًا إلى تدرجات السماء والبحار التي ترسم لوحات طبيعية خلّابة هذه الألوان ليست مجرد ظاهرة بصرية بل هي رموز تُجسد الجمال والنظام الطبيعي، وتُؤثر في الإنسان نفسيًا وثقافيًا.(منذ أن أبدع الله تعالى الطبيعة على مثاله وجبل الإنسان من ترابها، هام الإنسان بها، وتطلع بحب وشغف إلى جمالها وصفاء سمائها، وعاش في أحضانها ونعم بفتنتها، فكانت الطبيعة هي الملهم الأول لكل شاعر ولكل مبدع، وكانت الدافع الأكبر للإبداع فهي صديقة الإنسان الوفية يستلقي في أحضانها، فتمنح الجمال لأحاسيسه، ولنفسه الهدوء، إنه يناجيها فتدغدغ مشاعره ويهرب إليها ناشداً الراحة والهناء ويبوح لها بأسراره وآلامه وعواطفه فكانت ملاذ النفوس المتعبة القلقة ، لذلك أقبل الشعراء منذ القديم يصورون الطبيعة بمختلف ألوانها الزاهية والمبهجة للنفس ويعبرون عن أحاسيسهم وما تثيره ألوانها في نفوسهم من أفكار و عواطف ورؤى)(الكوسا: 13). فاللون في الطبيعة مظهر من مظاهر الجمال الكوني، (وعلى الرغم من أن الحياة من حولنا تزخر بألوانها الطبيعية المتنوعة والمتناسقة – سواء في طيورها وحيواناتها أو أزهارها ونباتاتها أو فيما يكتسبه الأفق من ألوان خلال دورة الحياة اليومية – فإن الإنسان لم يقنع بهذه الحياة الملونة الطبيعية وأضاف إليها من فنه وعلمه آلافا مؤلفة من الألوان والتركيبات اللونية ، وأدخل اللون الصناعي في كل شيء حوله حتى كادت الحياة غير الملونة أبيض وأسود تختفي من حياتنا وننفر منها)(عمر ١٩٩٧: ١٣). كان اللون عنصرا فاعلا في الطبيعة وفي مظاهرها، إذ بدا واضحا في المدن والقصور، والحدائق، والنقوش والزخارف والأزياء وذهب إنسان ذلك العصر يستنبط الألوان من الطبيعة، محاولا إضفاء مساحة لونية على محيطه و موجوداته، جاعلا من اللون عنصرا جماليا وعنوانا مهما لحضارته(سلمان ٢٠٠٧: ٢٩).

وتعدّ خطبة الحسين (رضي الله عنه) ليلة قتله مثالًا على تداخل دلالة اللون مع صورة الطبيعة حيث قال: (أُثْنِي عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحْسَنَ الثَّنَاءِ، وَأَحْمَدُهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ عَلَى أَنَّكَ أَكْرَمْتَنَا بِالنُّبُوَّةِ، وَعَلَّمْتَنَا الْقُرْآنَ، وَفَقَّهْتَنَا فِي الدِّينِ، وَجَعَلْتَ لَنَا أَسْمَاعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً، وَلَمْ تَجْعَلْنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَصْحَابًا أَوْلَى وَلَا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِي، وَلَا أَهْلَ بَيْتٍ أَبَرَّ وَلَا أَوْصَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَجَزَاكُمُ اللَّهُ عَنِّي جَمِيعًا خَيْرًا. أَلَا وَإِنِّي أَظُنُّ يَوْمَنَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ غَدًا. أَلَا وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ لَكُمْ، فَانْطَلِقُوا جَمِيعًا فِي حِلٍّ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْ ذِمَامٍ، هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشِيَكُمْ فَاتَّخِذُوهُ جَمَلًا ،ثُمَّ لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، ثُمَّ تَفَرَّقُوا فِي سَوَادِكُمْ وَمَدَائِنِكُمْ، حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ، فَإِنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا يَطْلُبُونَنِي، وَلَوْ قَدْ أَصَابُونِي لَهَوُوا عَنْ طَلَبِ غيري).

(صفوت ١٩٩٨: ٤٩)

النص الذي بين أيدينا يحمل قيمة أدبية وروحية عالية، وهو خطبة تشع بالعاطفة والقوة من خلال كلمات ذات طابع بلاغي وبياني مميز، اللون هنا سواء كان كمعنى حقيقي أم مجازي يُستخدم ليبرز الجمال المتمثل في الصور البلاغية والرمزية ويعزز القيم والمعاني المطروحة، عندما قال (السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) هنا يظهر تباين الألوان بصورة مجازية بين السراء(النور والفرح) والضراء (الظلمة والشدة) هذا التباين يشير إلى التقلبات البشرية، لكن النص يجملها بالشكر لله، فيبرز قيمة التسليم والرضا كصورة جمالية روحية. (فِي حِلٍّ... هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشِيَكُمْ) هنا يستعير اللون الأسود للّيل ليكوّن رمزيةً للستر والخلاص والأمل والتغلب على الخوف، أحيانا يكون الليل رمزا للخلاص و للتحمل والصبر، فما بعده صبح واشراقة يوم جديدة ، فيكون مرحلة زمنية وقتية عابرة لكنها تعدّ مدخلا لحياة بعدها، تبعث على الأمل والتفاؤل فالليل هو ملجأ وملاذ من مدلهمات الدهر يبثوا إليه انفعالاتهم، وهو ما بعده صبح فيبدل الحال وتتبدل بعده الأحوال(شدهان٢٠١٩:٩٨). (غَشِيَكُمْ)هنا استعارة تدل على كثافة الليل وسواده كغطاء سلمي يحميهم فالليل الغاشي يرمز للأمان والفرصة للخروج، وهو جمال تعبيري إذ يُصوّر الليل كغطاء سخيّ يتيح لهم التفرق والنجاة (سَوَادِكُمْ

وَمَدَائِنِكُمْ) فاللون الأسود في "سوادكم" يحيل إلى البادية والأفق المظلم، وهو مكان الستر والاختفاء، بينما "مدائنكم" تشير إلى اتساع المكان وكأن المدن تحتضنهم هذا التقابل يضفي صورة جمالية متكاملة تجمع بين الخفاء والاتساع كأمان.

وتتجلى في خطبة المختار(الزركلي ٢٠٠٢: ١٩٢). التي ألقاها حين استنصره ابن الحنفية دلالات اللون والطبيعة بوضوح: (وَلَمّا كَتَبَ مُحَمّدُ بْنُ الحَنَفِيّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى المُخْتارِ يُعْلِمُهُ بِمَا نالَهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، مِن سِجْنِهِم وَتَوَعُّدِهِم بِالقَتْلِ وَالتَّحْرِيقِ بِالنّارِ إِنْ لَمْ يُبَايِعُوا لَهُ، نَادَى المُخْتارُ فِي النّاسِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الكِتابَ، وخطب قائلا: «هَذَا كِتَابُ مُهْدِيكُمْ، وَصَرِيحُ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيّكُمْ، وَقَدْ تُرِكُوا مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ كَمَا يُحْظَرُ عَلَى الغَنَمِ، يَنْتَظِرُونَ القَتْلَ وَالتَّحْرِيقَ بِالنّارِ، فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَتَارَاتِ النَّهَارِ، وَلَسْتُ أَبَا إِسْحَاقَ إِنْ لَمْ أَنْصُرْهُمْ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، وَإِنْ لَمْ أُسْرِبْ إِلَيْهِمُ الخَيْلَ فِي إِثْرِ الخَيْلِ، كَالسَّيْلِ يَتْلُوهُ السَّيْلُ، حَتّى يَحِلَّ بابْنِ الكَاهِلِيّةِ الوَيْلُ!)(صفوت :٨٦).

يُظهر النص ردّ فعل المختار بعد أن تلقّى كتابًا من محمد بن الحنفية يُخبره فيه أن عبد الله بن الزبير سجنه هو ومن معه، وهدّدهم بالقتل والحرق إن لم يبايعوه. فأعلن المختار الخبر أمام الناس، وقرأ عليهم كتاب محمد بن الحنفية، وبيّن أن هذا الكتاب صادر من أهل بيت النبي ﷺ المظلومين، الذين تُركوا بلا حماية، كما يُترك الغنم دون راعٍ، ينتظرون الموت في كل لحظة من الليل والنهار، ثم تعهّد المختار نصرة محمد بن الحنفية وأهله، مؤكّدًا أنه "ليس أبا إسحاق" (كنيته) إن لم يُقاتل لنصرتهم، ويرسل إليهم الخيل تلو الخيل، كالسيل المنهمر، في هذا النص نستطيع ملاحظة أن القيمة الجمالية تتعزز من خلال الصور البلاغية التي تتضمن الألوان كوسيلة للتعبير عن المواقف والأحداث فالخطيب اعتمد على تراكيب تُبرز ألوانًا ذهنية قد لا تكون صريحة لكنها واضحة في المعنى والإيحاء:(ينتظرون القتل والتحريق بالنار): كلمة النار توحي بلون اللهب الأحمر الذي يعكس مشاعر العنف والتهديد(اللون الأحمر يعد أول لون عرفه الإنسان في الطبيعة، وهو من الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس، واشتعال النار والحرارة)(عبد الوهاب :٩٤)

، هنا يُستخدم اللون لتصوير حالة الرعب واليأس التي يعيشها من هم في السجن،أما في قوله:(إن لم اسرب إليهم الخيل في أثر الخيل كالسيل يتلوه السيل): هنا فيتم استحضار اللون الرمادي الداكن للخيل أو الأزرق العميق للسيل، مما يعكس القوة والجموح والهيمنة التي وعد المختار بها، إن اختيار المفردات التي تلمح إلى الألوان، كـ "النار"و الخيل " و"السيل"، يحمل توازنًا بين الجمال البصري في الصورة والقوة الرمزية، فالنار رغم قسوتها تحمل جانبًا مشعًا وبراقًا، وكذلك السيل الذي يمثل حركة الحياة الطبيعية لكنه مخيف وجميل في آن واحد.

وكذلك تعدّ خطبة عبد الملك بن مروان (الزركلي ٢٠٠٢ : ١٦٥). من الخطب التي اختلط فيها اللون مع الطبيعة ،حيث خطب عند وفاته ،عندما نظرَ إلى ابنِهِ الوليدِ وهو يبكي عليه عندَ رأسِهِ، فقالَ:

(يا هذا، أَحَنِينُ الحمامةِ؟ إذا أنا مِتُّ فشَمِّرْ واتَّزِرْ، والْبَسْ جِلْدَ نَمِرٍ، وضعْ سيفَكَ على عاتقِكَ، فمن أبدى ذاتَ نفسِهِ لك، فاضْرِبْ عنقَه، ومن سَكَتَ ماتَ بدائِهِ)(صفوت ١٩٩٨ : ١٩٨).

عند تأمل خطبة عبد الملك بن مروان لابنه الوليد في لحظاته الأخيرة، فأنّه يتجلى فيها خطابٌ ذو طابع رمزي، يجمع بين الصرامة السياسية والرؤية الرمزية للقيادة، مستندًا إلى مفردات الطبيعة وعناصر اللون كدوال إيحائية عميقة، عندما قال "اِلبَس جِلد نَمر" هذا التعبير من أبرز الصور التي توظف اللون الضمني في النص، إذ يُحيل "جلد النمر" إلى دلالة مزدوجة من جهة ارتباط جلد النمر بلونه المميز المرقّط، الأصفر المائل إلى الذهبي مع الأسود، مما يخلق انطباعًا بصريًا يوحي بالقوة والتوحّش، ومن جهة أخرى فإنّ استعارة الجلد لا تُراد على ظاهرها، بل هي مجاز عن ارتداء شخصية النمر: شجاعته، شراسته، جرأته ،وكأن الأب يأمر ابنه بتقمص شخصية تتماهى مع طبائع الغلبة والهيبة، فاللون هنا لا يُذكر بشكل صريح، بل يتسرّب من خلال الصورة المركّبة، ويُستدعى في ذهن المتلقي باستدعاء المشهد المرتبط بالنمر، فيتحول الجلد إلى "هوية" لونية وسلوكية يجب أن يلبسها الوليد، ويُفارق بها ضعف اللحظة، وتأتي عبارة "أحنين الحمامة؟" فعندما

يأتي ذكر الحمامة في مطلع الخطاب لا بوصفها طائرًا فحسب، بل بوصفها رمزًا للرقة والضعف العاطفي، وهي صورة راسخة في الثقافة العربية القديمة، حيث يُضرب بها المثل في الحنين والأنين، فأن توظيف الحمامة في هذا السياق هو استدعاء لطبيعة حية، تُقابل طبيعة النمر المفترس، فعبد الملك لا يذم الوليد على البكاء فحسب، بل يصوّره وقد تقمّص طبيعة الحمامة، وهو بذلك يُدين الفعل من حيث الجوهر والسلوك الطبيعي، لا من حيث الظرف فحسب، حيث يقدّم عبد الملك بن مروان خطابًا تأسيسيًّا في القوة السياسية من خلال ثنائية رمزية بصرية بين "الحمامة" و"النمر"، حيث يشكّل اللون والطبيعة معًا بنية رمزية مضادة: الرقة في مقابل الصرامة، الحزن في مقابل الفعل، واللين في مقابل الحسم. ومن خلال هذه الترسيمة الرمزية، يرسم للوليد ملامح الحاكم الذي لا ينبغي له أن يحمل قلبًا رقيقًا، بل يكون جلدًا مفترسًا وسيفًا مشرعًا، كأنما المُلْكُ لا يُحمى بالعاطفة، بل بالقوة التي لا تعرف التردد.

وكذلك برزت خطبة عمر بن عبد العزيز(الزركلي ٢٠٠٢ : ٥٠). كواحدةٍ من الخطب التي تطرّقت إلى التصوير اللوني وعناصر الطبيعة ،حيث قال:(إِنَّ لِكُلِّ سَفَرٍ زَادًا لَا مَحَالَةَ، فَتَزَوَّدُوا لِسَفَرِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ،... فَلَقَدْ عُنِيتُمْ بِأَمْرٍ لَوْ عُنِيتْ بِهِ النُّجُومُ لَانْكَدَرَتْ، وَلَوْ عُنِيتْ بِهِ الْجِبَالُ لَذَابَتْ، أَوِ الْأَرْضُ لَانْفَطَرَتْ، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَنْزِلَةٌ، وَأَنَّكُمْ صَائِرُونَ إِلَى إِحْدَاهُمَا؟)(صفوت ١٩٩٨ :٢٠٩) .إن خطبة عمر بن عبد العزيز تحمل طابعًا بلاغيًا وفكريًا عميقًا يعكس مكانته كخليفة مسلم ورجل زاهد يدعو إلى التأمل في مصير الإنسان. وقد وظّف الخليفة في خطبته الألوان والوصف الطبيعي كأداة لتحفيز الخيال وإثارة المشاعر، ليؤكد على الجدية المطلقة في التذكير بالآخرة وأهمية الاستعداد لها، إنّ الألوان لم تُذكر صراحة في الخطبة ولكنها تمثّلت بشكل ضمني من خلال الصور البلاغية التي ارتبطت بالطبيعة السماوية والأرضية مثل (النجوم انكدرت، والجبال ذابت، والأرض انفطرت)، هذه الصور هي التي حملت إيحاءات لونية مميزة أسهمت في بناء مشهد كوني متكامل يعكس قوة رسالة هذه الخطبة، ففي قوله "لو

عنيت به النجوم لانكدرت": النجوم في النص تُرتبط باللون الأبيض أو الفضي اللامع الذي يرمز إلى الأمل والهدى(ومن مظاهر الطبيعة أيضا الضوء والنجوم، وقد تذكر لضيائها في الظلام ، فهي خيط النور الذي يزرع الأمل) (عون : ٨٨) لكن استخدام الفعل "انكدرت" يُحوّل المشهد إلى لون مظلم كئيب (فالكدر نقيض الصفاء والكدرة من الالوان ما نحا نحو السواد والغبرة)(ابراهيم ١٩٨٩ :٢١٦) هذا التحول في المشهد يوحي بعظمة الأمر المذكور ويضفي شعورًا بالخوف من عواقب الغفلة. أما قوله"لو عنيت به الجبال لذابت": فتعكس الجبال، برمزيتها الدالة على الثبات والقوة، ألوانًا داكنة مثل الرمادي، الأخضر الداكن، فصورة ذوبانها يُحيل إلى فكرة التحلل والتلاشي، وكأن هذه الألوان تتحول إلى شحوب أو سيولة، مما يبرز فكرة الفناء أمام عظمة الحساب الإلهي،وقوله " أو الأرض لا نفطرت " تبرز الأرض هنا كرمز للحياة وغالبا ما ترتبط بألوان خضراء أو بنية تمثل الخصوبة والثبات ، وتصويرها في النص وهي تنفطر يوحي بتغير مفاجئ وصادم، يتحول فيه اللون الطبيعي إلى شيء أكثر رهبة ربما الأحمر المتصل بالدمار أو الأسود المتصل بالموت. إن الألوان في هذه الخطبة ليست مجرد وصف،

بل هي أداة تحفيز شعوري فإن التحول من الإشراق (النجوم) والثبات الجبال والأرض) إلى الظلام والانفطار يعكس تأثيرًا نفسيًا يجعل المتلقي يدرك ضخامة المسؤولية الملقاة عليه، كما إن توظيف الألوان في الخطبة يضيف بعداً بلاغيًا عميقا يجعل الرسالة أكثر تأثيرًا فاستخدام الصور الطبيعية واللونية يعكس براعة الخطيب في الجمع بين الترغيب والترهيب، حيث يتحول الوصف الكوني إلى وسيلة إقناع قوية بأهمية العمل الصالح.

ومن الخطب التي جمعت بين اللون والطبيعة برزت خطبة داود بن علي(الزركلي ٢٠٠٢: ٣٣٣) حيث قال: (اَلْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا شُكْرًا، اَلَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّنَا، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّهَا النَّاسُ: اَلآنَ أَقْشَعَتْ حَنَادِسُ الدُّنْيَا، وَانْكَشَفَ غِطَاؤُهَا، وَأَشْرَقَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا، وَبَزَغَ القَمَرُ مِنْ مَبْزَغِهِ، وَأَخَذَ القَوْسُ بَارِيَهَا، وَعَادَ السَّهْمُ إِلَى

النَّزْعَةِ. وَرَجَعَ الحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ، اَلْعَطْفِ عَلَيْكُمْ...)(صفوت ١٩٩٨: ١٤)

يحمد الخطيب الله على نصره وهلاك العدو، وعودة ميراث النبوة إلى أهله المستحقين، ويُعلن انكشاف الظلم وزوال الفتن، وعودة النور والحق إلى نصابه، مشبّهًا ذلك بطلوع الشمس والقمر، ويؤكد أن الحق عاد إلى أهل بيت النبي ، الذين يتصفون بالرأفة والرحمة والعطف على الأمة.

فعندما نتناول توظيف اللون في الخطبة نجد أن الألوان تمثل مجموعة من الدلالات والمعاني التي تتداخل مع الأحداث والعواطف،أن تعبير "حنادس الدنيا" يستحضر اللون الأسود القاتم، بل أشد درجاته فهي ليست مجرد ظلمة عادية، بل هي ظلمة حالكة كأنها بلا ضوء ولا أمل هذه الكلمة تحمّل الدنيا صفات بصرية تشاؤمية، فالدنيا وفتنها تشبه ليلًا لا قمر فيه ولا نجوم، أما اللون الأبيض فهو يظهر بشكل غير مباشر من خلال التحدث عن انكشاف غطائها، وهذا يشير إلى رؤية الحقيقة أو الكشف عن أمر مخفي، مما يرمز إلى النقاء والوضوح بعد فترة من الظلام أو الظلم فاللون الأبيض هنا يمكن أن يكون رمزًا للنور والمعرفة التي تُظهر الأمور على حقيقتها، فالأبيض هو (رمز الطهارة، والنور، والغبطة والفرح والنصر، والسلام)(طالو ١٩٦١ :١٧١). أما اللون الأزرق أو السماوي في قوله"وأشرقت أرضها وسماؤها" فيمكن أن يكون رمزًا للسلام والاستقرار بعد فترة من الصراع أو التوتر، وفي كثير من النصوص نجد هذا اللون يحمل دلالة الصفاء فهو لون السماء والبحار والمحيطات وهو لون الشوق والليل الطويل الذي ينتظر شروقه(الياقوت:١٣) . والسماء في الأدب غالبًا ما تمثل الروحانية أو السمو في الحالة النفسية والمادية، مما يضيف بعدًا من التفاؤل والنقاء بعد المعاناة، وفي قوله "وطَلَعَت الشمس من مطلعها"يبرز هنا اللون الأصفر او الذهبي فالشمس تعكس معنى الانتصار والوضوح مما يشير إلى انبثاق النور والعدالة في العالم، وتحقيق العدل في آخر المطاف، ويؤكد الفكرة نفسها بزوغ القمر

في قوله "وزَجَّ القمر من مبزغه" فلمعان القمر في الأدب العربي بلونه الأبيض، أو الرمادي غالبًا ما يرتبط بالجمال والهدوء، وفي هذا السياق قد يكون رمزًا للطمأنينة التي تجلبها العدالة بعد فترة من التوتر، ويمكن أيضًا أن يعبر عن الطهارة أو السمو.

ومن الخطب التي اتسمت بحضور اللون وتجليات الطبيعة خطبة ٱلْمَهْدِيُّ ،حيث قال: (اَلْخُطَبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ، نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ نَجْرِي أَسْبَابِ الْقَضَايَا، وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ، عَلَى سَابِقٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَمَحْتُومٍ مِنَ الْأَمْرِ، قَدْ أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَتَتَبَّأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ، وَقَدْ تَنَاهَى ذٰلِكَ بِأَجْمَعِهِ إِلَيْنَا، وَتَكَامَلَ بِحَذَافِيرِهِ عِنْدَنَا، فَبِهِ نُدَبِّرُ، وَعَلَى اللهِ نَتَوَكَّلُ، فَهَدَأَتْ نَافِرَةُ الْقُلُوبِ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُخْتَلِفُونَ بِالرِّضَا، فَيَمِيلُ نَظَرًا لَهُمْ، وَبَرَأَ بِهِمْ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ، إِلَى عَدُوٍّ قَدْ أَخَافَ سَبِيلَهُمْ، وَقَطَعَ طَرِيقَهُمْ، وَمَنَعَ حُجَّاجَهُمْ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ، وَسَلَبَ تُجَّارَهُمْ رِزْقَ اللهِ الْحَلَالَ؛ وَأَمَّا الْآخَرُ فَإِنَّهُ يُوَجِّهُ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَعْتَقِدُ لَهُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، بِإِعْطَاءِ مَا يَطْلُبُونَ، وَبَذْلِ مَا يَسْأَلُونَ، فَإِذَا سَمَحَتِ الْفِرَقُ بِقَرَابَاتِهَا لَهُ، وَجَنَحَ أَهْلُ النَّوَاحِي بِأَعْنَاقِهِمْ نَحْوَهُ، فَأَصْغَتْ إِلَيْهِ الْأَفْئِدَةُ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْكَلِمَةُ، وَقَدِمَتْ عَلَيْهِ الْوُفُودُ، قَصَدَ أَوَّلَ نَاحِيَةٍ بَخَعَتْ بِطَاعَتِهَا، وَأَلْقَتْ بِأَزِمَّتِهَا، فَأَلْبَسَهَا جَنَاحَ نِعْمَتِهِ، وَأَنْزَلَهَا ظِلَّ كَرَامَتِهِ، وَخَصَّهَا بِعَظِيمِ حِبَائِهِ، ثُمَّ عَمَّ الْجَمَاعَةَ بِالْمُعْدِلَةِ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ، فَلَا تَبْقَى فِيهِمْ نَاحِيَةٌ دَانِيَةٌ، وَلَا فِرْقَةٌ قَاصِيَةٌ، إِلَّا دَخَلَتْ عَلَيْهَا بَرَكَتُهُ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهَا مَنْفَعَتُهُ، فَأَغْنَى فَقِيرَهَا، وَجَبَرَ كَسِيرَهَا، وَرَفَعَ وَضِيعَهَا، وَزَادَ رَفِيعَهَا، مَا خَلَا نَاحِيَتَيْنِ: نَاحِيَةٌ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الشَّقَاءُ، وَتَسْتَمِيلُهُمُ الْأَهْوَاءُ، فَتَسْتَخِفُّ بِدَعْوَتِهِ، وَتُبْطِئُ عَنْ إِجَابَتِهِ، وَتَتَثَاقَلُ عَنْ حَقِّهِ، فَتَكُونُ آخِرَ مَنْ يُبْعَثُ، وَأَبْطَأَ مَنْ يُوَجَّهُ، فَيَصْطَلِي عَلَيْهَا مُوجِدَةٌ، وَيَبْتَغِي لَهَا عِلَّةً، لَا يَلْبَثُ أَنْ يَجِدَ بِحَقٍّ يَلْزَمُهُمْ، وَأَمْرٍ يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَتَسْتَلْحِمُهُمُ الْجُيُوشُ، وَتَأْكُلُهُمُ السُّيُوفُ، وَيَسْتَحِرُّ بِهِمُ الْقَتْلُ، وَيُحِيطُ بِهِمُ الْأَسْرُ، وَيُفْنِيهِمُ التَّتَبُّعُ، حَتَّى يُخْرِبَ الْبِلَادَ، وَيُؤْتِمَ الْأَوْلَادَ، وَنَاحِيَةٌ لَا يُبْسَطُ لَهُمْ أَمَانٌ، وَلَا يُقْبَلُ لَهُمْ عَهْدٌ، وَلَا يُجْعَلُ لَهُمْ ذِمَّةٌ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ بَابَ الْفُرْقَةِ، وَتَدَرَّعَ جِلْبَابَ الْفِتْنَةِ، وَرَبَضَ فِي شِقِّ الْعَصَا، وَلَكِنَّهُ يَقْتُلُ أَعْلَامَهُمْ، وَيَأْسِرُ قُوَّادَهُمْ، وَيَطْلُبُ هُرَّابَهُمْ، فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، وَقُلَلِ الْجِبَالِ، وَحَمِيلِ

الْأَوْدِيَةِ، وَبُطُونِ الْأَرْضِ، تَقْتِيلًا، وَتَغْلِيلًا، وَتَنْكِيلًا، حَتَّى يَدَعَ الدُّنْيَا خَرَابًا، وَالنِّسَاءَ أَيَامَى، وَهٰذَا أَمْرٌ لَا نَعْرِفُ لَهُ فِي كُتُبِنَا وَقْتًا، وَلَا نُصَحِّحُ مِنْهُ غَيْرَ مَا قُلْنَا تَفْسِيرًا، وَأَمَّا مُوسَى وَلِيُّ عَهْدِي، فَهٰذَا أَوَانُ تَوَجُّهِهِ إِلَى خُرَاسَانَ، وَحُلُولِهِ بِجُرْجَانَ، وَمَا قَضَى اللهُ لَهُ مِنَ الشُّخُوصِ إِلَيْهَا، وَالْمُقَامِ فِيهَا، خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مَغَبَّةً، وَلَهُ – بِإِذْنِ اللهِ – عَاقِبَةٌ مِنَ الْمُقَامِ، بِحَيْثُ يَغْمُرُ فِي لُجَجِ بُحُورِنَا، وَمَدَافِعِ سُيُولِنَا، وَمَجَامِعِ أَمْوَاجِنَا، فَيَتَصَاغَرُ عَظِيمُ فَضْلِهِ، وَيَتَذَاءَبُ مَشْرِقُ نُورِهِ) (صفوت:٧٢_٧٤).

في هذه الخطبة، يوضح الخليفة المهدي العباسي أن الخطابة ليست بالتكلف والتصنع كما يظن الناس، بل هي امتداد لعِلمٍ ربانيٍّ ووراثة نبوية ،مستشهدًا بأن هذا الفضل مؤيَّد بالكتب السماوية والرسل، ثم ينتقل إلى الحديث عن حالة الأمة، مبيّنًا وجود فرقٍ استجابت للحق، فعمها الخير والبركة، وأخرى أعرضت فاستحقت العقوبة والحصار والدمار. وينوّه في آخر الخطبة إلى دور ولي عهده موسى الهادي في التوجه إلى خرسان لتحقيق النصر والاستقرار هناك، ففي عبارة: "يَطْلُبُ هُرَّابَهُمْ، فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، وَقُلَلِ الْجِبَالِ، وَحَمِيلِ الْأَوْدِيَةِ، وَبُطُونِ الْأَرْضِ" هذه من أبلغ الصور الطبيعية في الخطبة، حيث يوظف الفضاء الطبيعي الواسع والموحش: البحار العميقة، الجبال الشاهقة، الأودية السحيقة، وحتى باطن الأرض، هنا يدخل اللون الأزرق الغامق للبحار،(ينقلنا اللون الأزرق إلى عالم من الصفاء و الشفافية ،و غالبا ما تعاملت هذه الشفافية مع مفردات الواقع المادي، وغالبا أيضا ما يتصل بعالم السماء والأرض من ماء المحيطات و البحار و غيرها من أمكنة)(عيساوي:٢٦).أما وصف الجبال من خلال "قلل الجبال" فيرفع القارئ إلى مشهد شاهق تتجلى فيه الطبيعة بأبهى صورها حيث الألوان المرتبطة بالجبال تعكس قوتها وهيبتها: ومنها الرمادي الداكن للحجارة الذي يشير إلى الصلابة والصمود، بينما الأبيض الناصع على القمم المغطاة بالثلوج يُبرز نقاء الجمال وسط قسوة الطبيعة أما الأخضر الذي يغلف السفوح فيُعيد التوازن بين قوة الجبال واحتضانها للحياة. أما حَميل الأودية" فأنه يستدعي مشهدًا نابضًا بالحياة هنا، اللون الأخضر يتصدر الصورة كرمز للنماء والاستمرار، متداخلًا مع الأزرق المتلألئ لمجاري المياه،

فالحركة الطبيعية للمياه بين الصخور تعكس تدرجات لونية تحاكي جمال التناغم الطبيعي، حيث تتداخل ألوان التربة الداكنة مع انعكاسات السماء الصافية. وتشير عبارة"بطون الأرض" إلى العالم الخفي الذي يحتضن الألوان الدافئة، مثل البني والذهبي، التي تمثل جوهر الأرض وغناها ، حيث يرمز اللون البني إلى بطون الأرض، ويبعث على الدفء والثبات(الياقوت:١٢٩). فاللون البني يعبر عن الأصالة والثبات كأن الأرض تمد جذورها نحو الأبدية، أما الذهبي فيُشير إلى الكنوز التي تختزنها الطبيعة في عمقها، حيث يُصبح الجمال هنا رمزًا للوفرة والغموض، أما قوله:"فَيَتَصَاغَرُ عَظِيمُ فَضْلِهِ، وَيَتَذَاءَبُ مَشْرِقُ نُورِهِ" فهذه جملة عظيمة تختتم المشهد. "مشرق نوره" إشارة إلى البياض والضياء، إلى الأمل والحق، لكن الصورة تكتسب نغمة حزن حين يقول "يتذاءب"، أي يتوزع ويتشتت، فيتحول الضوء إلى شظايا، ويصبح البياض ضوءًا منطفئًا. فتوظيف الضوء جاء هنا كناية عن الهيبة والهيمنة التي بدأت تتضاءل. فالخطبة مشبعة بصور طبيعية لونية توحي بأبعاد نفسية وروحية عميقة، الألوان الضمنية تتراوح بين الأزرق الداكن (القلق والمطاردة)، الرمادي (السكون بعد الغضب)، والأبيض (النور الذي بدأ يخبو)، ولذا صارت الطبيعة وسيلة لتكثيف المعنى وتحفيز الصراع بين الخير والشر،والوحدة والفرقة، والأمن والدمار.

ومن نماذج الخطب التي تبرز علاقة اللون بالطبيعة، ما قاله رجل من العرب حين سُئل عن مطرٍ جاء بعد قحط، حيث قال : (نَشَأَ حَمْلًا، سَدًّا مُتَقَاذِفَ الأَحْضَانِ، مَحْمُومِي الأَرْكَانِ، لَمَّاعِ الأَقْرَابِ، مُكْفَهِرِّ الرِّبَابِ، تَحِنُّ رُعُودُهُ حَنِينَ اضْطِرَابٍ، وَتَزْمَجِرُ زَمْجَرَةَ اللُّيُوثِ الغِضَابِ، لِبَوَارِقِهِ اِلْتِهَابٌ، وَلِرَوَاعِدِهِ اضْطِرَابٌ، فَجَاحِفَتْ صُدُورُهُ الشِّعَافَ، وَرَكِبَتْ أَعْجَازُهُ القِفَافَ، ثُمَّ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ، وَحَطَّ أَثْقَالَهُ، فَتَأَلَّقَ وَأَصْعَقَ، وَانْبَجَسَ وَانْبَعَقَ، ثُمَّ أَثْجَمَ فَانْطَلَقَ، فَغَادَرَ النَّهَاءَ مُتْرَعَةً، وَالغِيْطَانَ مُمْرَعَةً، حَبَاءً لِلْبِلادِ، وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ)(صفوت: ٢٤١).

يصف المتحدث المطر بعد جدب وصفًا حيويًّا عاصفًا، بدأ بسحابة عظيمة مهيبة، ثم أمطرت بغزارة فأنبتت الأرض وأروت البلاد، فكانت سببًا في الخصب والرزق للناس.

في هذا النص العربي البليغ، تتجلى قوة التصوير الفني للطبيعة، إذ يعرض لنا المتحدث مشهدًا للمطر وكأنّه كائن حيّ جبار، يضطرب، ويزأر، ويثور، ثم يهدأ ليفيض بالخير والنماء.تظهر الألوان من خلال الكلمات مثل "لمّاع الأقراب" التي توحي ببريق البرق في الأفق، و "مكفهرّ الرباب " التي تصوّر السحاب بلون داكن مكفهرّ، يوحي بالرهبة والهيبة، وكأن السحاب عبوس قاتم، هذا التباين بين البريق والاكفهرار يعكس التقابل بين الضوء والظلمة، وهو من أساليب الإيحاء البصري في الوصف الطبيعي.المطر يُجسّد كوحش عارم أو أسد غاضب، كما في: "تزمجر زمجرة الليوث الغضاب"، وهو تشبيه ضمني يوحي بقوة المطر وصوته المدوّي. كذلك "حنين اضطراب" تجسيد للرعد ككائن يئن ويشتكي.

ومن الصور المتحركة قوله: "انبجس وانبعق ثم أثجم فانطلق"، هذه الأفعال تتوالي لترسم مشهدًا لماء يتفجر من السماء، ثم يسيل في الأرض باندفاع وقوة، مما يخلق إيقاعًا سمعيًّا وحسيًّا يعكس خصوبة النص وثراءه الحركي، يبدأ النص بالسحاب في السماء، ثم يصف حركته فوق الجبال "فجاحفت صدوره الشعاف"، ثم هبوطه نحو الأرض "ركبت أعجازه القفاف"، ثم يتفجّر الماء وينطلق في الأرض، وأخيرًا يترك الأنهار ممتلئة والغيطان مزهرة. هذا التدرج الزمني والمكاني يعكس نظرة العربي الدقيقة للطبيعة، ويجعل من المطر حدثًا كونيًا يُحرك الحياة، وينتهي النص بعبارة "حباءً للبلاد، ورزقًا للعباد"، وكأن كل هذا العنف والجلبة كانت مقدمة لعطاء إلهي عظيم. وهذا الجمع بين القوة والرحمة، بين الرهبة والرغبة، هو من خصوصيات البلاغة العربية في وصف الطبيعة، فالنص تحفة بلاغية، يصور فيه العربي المطر تصويرًا أسطوريًّا مملوءًا بالحركة والصوت واللون،

وهو شاهد حيّ على نظرة العربي القديمة للعالم: عالمٌ حيّ، كل عناصره فاعلة ومتفاعلة، وكل ظاهرة فيه تحمل وجهين رهبة وجمال.

ومن الخُطَب التي عالجت موضوع اللون ومظاهر الطبيعة، قول أحد الخطباء العباسيين: (خَرَجْتُ لَيْلَةً حِينَ انْحَدَرَتْ أَيْدِي النُّجُومِ، وَشَالَتْ أَرْجُلُهَا، فَمَا زِلْتُ أَصْدَعُ اللَّيْلَ حَتَّى انْصَدَعَ الفَجْرُ، فَإِذَا بِجَارِيَةٍ كَأَنَّهَا عَلَمٌ، فَجَعَلْتُ أُغَازِلُهَا، فَقَالَتْ: يَا هَذَا، أَمَا لَكَ نَاهٍ مِنْ كَرَمٍ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلٍ؟"قال: "وَاللهِ مَا يَرَانِي إِلَّا الْكَوَاكِبُ!"قالت: "فَأَيْنَ مَكَوْكِبُهَا؟)(صفوت: ٢٥٤).

هذا النص يعكس قدرة الخطيب على رسم صورة حية للطبيعة الليلية بأسلوب يعتمد على الألوان كوسيلة للتعبير عن عمق المشهد ودقته، يتجلى حضور اللون في وصفه لمظاهر الطبيعة من خلال تصويره للأفق والسّماء ونجومها، مما يعكس ارتباط الخطيب العميق بالطبيعة ومكوناتها، أما عندما قال"حين انحدرت أيدي النجوم"هنا استخدام "أيدي النجوم" ينطوي على بعد مجازي يُبرز حركة النجوم في السماء كما لو أنها تُنزل أذرعًا لاحتضان الأرض و يشير اللون الضمني هنا إلى البهاء الفضي أي اللون الفضي الذي تشع به النجوم في عتمة الليل، حيث يعكس اللون الأبيض النقي ضوءها المتسرب عبر الظلمة وهذه الصورة تجعل القارئ يتأمل في الحركة الهادئة للنجوم، مع ارتباطها بتغيرات الزمن، فاللون هنا يُستشفّ من المشهد الطبيعي ذاته؛ فالنجم بألقه الأبيض الفاتح يلمع في سواد الليل، فالتباين بين الظلام الشامل وضوء النجوم يخلق لوحة بصرية قوية، تُبرز حركة الحياة حتى في السكون الظاهري للسماء، أما عبارة" حتى انصدع الفجر" فوصف هنا انشقاق الفجر ليوحي بتبدل الألوان في الأفق من عتمة حالكة إلى ألوان تُعبر عن ولادة النهار، كالأحمر القاني والأصفر الذهبي الممزوج بوهج أبيض، فهذه الإشارة إلى انبلاج الضوء بعد ظلمة الليل ترسم صورة تتسم بالحيوية حيث يصبح اللون وسيلة للتعبير عن التحول الزمني في الطبيعة. وحين قال"والله ما يراني إلا الكواكب" فالإشارة إلى الكواكب يحمل بُعدًا لونياً مُتكرراً، حيث يؤكد حضور اللون الأبيض البراق والمضيئ للكواكب، مشددًا على ارتباط الخطيب بالطبيعة كملاذه

ومرآة لنفسه ، سميت الكواكب بذلك (لإضاءتها وتفرقها في السماء ، وهي معروفة عندنا بأنها أجرام نراها في السماء) .وهذا الضوء السماوي يُضفي إحساسًا بالسكون والسكينة بالنسبة له، ولكنه يترك انطباعًا بالعزلة أيضًا حيث لا رقيب سوى هذه النقاط الضوئية في الظلام، حيث إن اللون في النص هو أداة للتعبير عن التجربة النفسية للخطيب التي تمزج بين الوحدة والتأمل.

المصادر والمراجع

١. ابراهيم، عبدالحميد (١٩٨٩)، قاموس الألوان عند العرب، ط١،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٢. الزركلي ،خيرالدين (٢٠٠٢) الاعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان .

٣. سلمان، غنى صكبان (٢٠٠٧) ، توظيف اللون في شعر ابي تمام ، رسالة ماجستير، كلية التربية ، جامعة واسط.

٤. شدهان ، حنان مرزوك (٢٠١٩) اللون في الشعر الفاطمي للمدة (٣٥٨هـ–٤٢٧هـ)، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة كربلاء.

٥. صفوت، أحمد زكي (١٩٩٨)، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ،ط٢، دار صادر، بيروت.

٦. طالو، محي الدين (١٩٦١) ، الرسم واللون، د.ط ، دار دمشق للنشر ، مصر.

٧. عبدالوهاب، شكري(١٩٨٥) الاضاءة المسرحية، د.ط ، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، مصر.

٨. عمر، أحمد مختار (١٩٩٧)، اللون واللغة،ط٢، عالم الكتب للنشر، القاهرة.

٩. عيساوي، فايزة (٢٠١٦) اللون والدلالة في الشعر الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة محمد خيضر بسكرة.

١٠.فليح ، ثراء جبار (٢٠١٤)، اللون في الشعر الأندلسي في عصر الموحدين والمرابطين، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب.

١١. الكوسا، عبير فايز حمادة(٢٠٠٧) اللون في الشعر الأندلسي، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم ، جامعة البعث.

١٢. الياقوت، شيخاوي(٢٠١٨) معاني الألوان في اللغة والثقافة والفن، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة ابو بكر يلقاي تلمسان .